أثر المكان وجمالياته في البعدين الاجتماعي والوجداني عند الشاعر"إبراهيم مفتاح نموذجا"

The impact of place and its aesthetics on the social and emotional dimensions of the poet "Ibrahim Miftah as a model"

إعداد

علي أحمد علي شيخ حكمي

Ali Ahmed Ali Sheikh Hakami

باحث دكتوراه - جامعة جازان - (المملكة العربية السعودية)

Doi: 10.21608/mdad.2025.462662

استلام البحث	٣٠/ ٨ /٢٠٢٥
قبول النشر	٣٠/ ٩ /٢٠٢٥

حكمي،علي أحمد علي شيخ (٢٠٢٥). أثر المكان وجمالياته في البعدين الاجتماعي والوجداني عند الشاعر"إبراهيم مفتاح نموذجا". ***المجلة العربية مـــداد***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر،٩(٣١)، ٢٢٤- ٢٦٤.

http://mdad.journals.ekb.eg

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أثر المكان وجمالياته في البعدين الاجتماعي والوجداني عند الشاعر"إبراهيم مفتاح نموذجا"[١]

الملخص:

يعد المكان من أبرز العناصر المهيمنة في النص الأدبي، بجنسيه: الشعري والسردي، فيحضر المكان موجها داخل النص، ومؤطرًا له، ومحتويًا لأحداثه، كما يحضر معبرًا عن أغراضه ومفسرًا لقضاياه، خاصة حينما يكون المكان هو المحور والمركز للنص الأدبي.

وثمة نصوص أدبية يبرز فيها المكان واضحًا جليًا، مسترعيًا المتأمل والبحث؛ بغية دراسته واستجلاء شاعريته داخل هذه النصوص. ومن هذه الأعمال الأدبية، النتاج الأدبي للأديب إبراهيم عبد الله مفتاح؛ شعرًا وسردًا. وتعنى هذه الدراسة باستنباط جماليات تمثلات المكان داخل أعماله الشعرية، كما تتجلى متعددة التوجه من حيث تناولها للمكان ودوره في جماليات النصوص الأدبية، ويعزى ذلك بالأساس إلى تعدد أنواع المكان عند إبراهيم مفتاح، إذ يأتي في شعره موَظَّفًا في بعده الاجتماعي حين يغني الشاعر لوطنه أو قضايا أمته، كما يأتي في جانب وجداني حين يعبر الشاعر عما يختلج في نفسه من مشاعر حب وحنين باستخدام أدوات المكان المؤنسن، فيجسد المكان في صورة أنثى، ويخلع عليها علامات الجمال والفتنة والبهاء.

ومفتاح -ابن جزيرته فرسان- يوظف المكان توظيفا طبيعيا عندما يصف معالم هذه الجزيرة، فيذكر بحرها وشاطئه، وأعماق هذا البحر ولآلئه، ولا ينسى قراها وآبارها، وطرقاتها الملتوية، وذكرى أصحابه في ظل نخيلها.

هذه مواضع المكان عند مفتاح التي دارت حولها مواضيع هذه الدراسة، مع استكناه

[١] إبراهيم عبد الله عمر مفتاح، شاعر سعودي ولد عام ١٣٩٥/١٩٤٠ في جزيرة فرسان بالمملكة العربية السعودية، وله العديد من المشاركات في الأمسيات الشعرية والملتقيات الأدبية، له ثلاثة دواوين شعرية (عتاب إلى البحر، احمرار الصمت، رائحة التراب)، وأعمال ومؤلفات أخرى سردية وإبداعية. ينظر: معجم البابطين للشعراء المعاصرين، ص١٦٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

جوانب الإبداع والجمال فيها.

الكلمات المفتاحية:
الهوية المكانية، البعد الاجتماعي، البعد الوجداني، التمثلات الشعرية، الجماليات.

Abstract:

Place is one of the most prominent and dominant elements in literary texts whether poetic or narrative. It appears as a guiding force within the text, framing and containing its events, while also expressing its purposes and elucidating its issues especially when place becomes the axis and center of the literary work.

There are literary texts in which place emerges clearly and vividly, drawing the attention of critics and researchers to study its presence and uncover its poetic dimensions.

Among such works is the literary output of Ibrahim Abdullah Muftah, in both his poetry and prose. This study seeks to uncover the aesthetics of spatial representations within his poetic works.

The study is multifaceted reflecting the diversity of spatial forms in Muftah's writings and examines the role of place in shaping the aesthetic texture of his literary texts.

In Muftah's poetry, place functions as a social symbol when the poet sings of his homeland or his nation's causes. It also assumes an emotional dimension when he expresses the deep feelings of love and longing within his soul through the tools of personified space, portraying place as a woman endowed with beauty, charm, and radiance.

Muftah - a son of the island of Farasan -uses place in a natural and authentic manner when describing the features of his island: its sea and shores, the depths of that sea and its pearls, its villages and

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

wells, its winding paths, and the memories of his friends beneath the shade of its palm trees.

These manifestations of place in Muftah's works form the central focus of this study, which seeks to explore their artistic and aesthetic dimensions.

Keywords: Spatial identity, Social dimension, Emotional dimension, Poetic representations, Aesthetics.

. . .

توطئة:

في الدراسات الأدبية الحديثة، يُعَدّ المكان أحد أبرز العناصر المهيمنة في بنية النص الأدبي، سواء في الشعر أم في السرد. فهو ليس إطارًا محايدًا أو خلفية صامتة للأحداث، بل عنصر موجِّه داخل النص، يحدّد أفقه الدلالي ويُؤطِّر مساراته الجمالية والفكرية، ويُسهم في تشكيل هُوية العمل الأدبي ومعناه. فالمكان- في كثير من الأعمال- يغدو كيانًا فاعلًا، يحمل بصمته الخاصة في توجيه الرؤية وتفسير القضايا التي يعالجها النص، لا سيّما حين يتخذ المكان موقع المحور والمركز في التجربة الإبداعية.

وتتجلّى هذه السمة بوضوح في طائفة من النصوص الأدبية التي يُبرز فيها المكان حضوره بكثافةٍ لافتة، بحيث يستدعي المتأمّل والباحث لاستكشاف دلالاته واستجلاء شعريته. ومن بين هذه النصوص، يبرز النتاج الأدبي للشاعر والأديب إبراهيم عبد الله مفتاح، الذي جمع في تجربته بين الشعر والسرد، وارتبطت تجربته الإبداعية ارتباطًا وثيقًا ببيئته المكانية وذاكرتها.

وقد قامت هذه الدراسة على استنباط جماليات تمثّلات المكان في شعر إبراهيم مفتاح، متتبعةً تجلياته الأسلوبية والدلالية، وكيفية تحوّله إلى مكوّن فني وجمالي ينهض عليه البناء الشعري. وجاءت الدراسة متعدّدة الأبعاد، انسجامًا مع تنوّع أنماط المكان في شعر مفتاح، من حيث حضوره الاجتماعي والوجداني والطبيعي، وما يترتب على هذا التنوع من اختلاف في الأداء الشعري والدلالة الرمزية.

ISSN : *2537-0847* eISSN: *2537-0898*

ففي بُعده الاجتماعي، يتجلّى المكان عند مفتاح في صورة الوطن الكبير، حين يغنّي الشاعر لقضايا أمّته أو يُعبّر عن انتمائه الوطني، فيتحوّل المكان إلى فضاء للذاكرة الجمعية، ومجالٍ للمقاومة والهوية. أمّا في بُعده الوجداني، فإن المكان يغدو مرآةً للنفس، وأداةً للتعبير عن مشاعر الحنين والحب والألم، حيث يُؤنسن الشاعر المكان، ويمنحه صفات أنثوية مشبعة بالفتنة والجمال والبهاء، ليصبح المكان هنا كائنًا نابضًا بالعاطفة، يتجاوز حدوده المادية إلى فضاء رمزي مفعم بالوجدان.

ولأن مفتاح ابنُ جزيرةِ فرسان، فإن حضوره المكاني يتخذ بعدًا طبيعيًا أصيلاً، يتجلّى في وصفه لمعالم الجزيرة وتفاصيلها الدقيقة: بحرها المتلألئ وشواطئها الصافية، أعماقها المليئة باللآلئ، قراها القديمة وآبارها العذبة، طرقاتها الملتوية، وذكريات أصدقائه تحت ظلال نخيلها. هذه العناصر ليست مجرد مشاهد وصفية، بل مكونات دلالية تنسج منها القصيدة عالمها الجمالي وتؤكد انتماء الشاعر إلى بيئته الأم.

من هذه المواضع والتمثلات المكانية تنبثق موضوعات هذه الدراسة، التي تسعى إلى استكناه الجوانب الإبداعية والجمالية في شعر إبراهيم مفتاح، وإبراز المكان بوصفه عنصرًا بنيويًا مؤسِّسًا للتجربة الشعرية، ومفتاحًا لتأويل رؤيته الجمالية والإنسانية.

. . .

أولا: المكان مؤثرا في البعد الاجتماعي:

(ثنائية القرية والمدينة):

دائما ما تكون هناك موضوعات مشتركة بين معظم الشعراء، يتناولونها بطرق مختلفة، تأتي بناء على التأثر والتأثير والتجارب المشتركة المُعاشة في ظروف وبيئات متشابهة.

ويبقى تأثير المدن أو الأرياف واضحا جليا في شخصيات وثقافات قاطنيها، فقد تُفرض تدريجيا الثقافات والقيم والأفكار على الناس سواء من بيئتهم المادية بمكوناتها أو المتغيرات التي تتعرض لها هذه البيئات سواء سياسية أو اجتماعية أو مادية أو طبيعية،

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وهذا ما يظهر عند دراسة سوسيولوجيا[٢] الثقافة للمجتمعات، ودراسة تأثير الثقافة في بناء المجتمعات، "ولأن المثقف مكون رئيس من مكونات المجتمع فإن تأثيره من أهم التأثيرات في المجتمعات، فالمثقفون يشكلون نوعا من التناوب بين بُنى النظام في المجموعة"[٣].

أما الأديب والشاعر فنظرته مختلفة يجسدها من خلال تعرضه للقرية والمدينة، وهذه النظرة تتجاوز موضوع التأثر إلى أبعاد أخرى تاريخية ونفسية ووجدانية، حيث تحضر الثنائيات غالبا في التعريض بماضي المدن وحاضرها.

تأتي ثنائية القرية والمدينة دافعا مثيرا لشاعرية الأديب، فما إن ينزح الشاعر إلى المدينة حتى ينتابه الضيق والقلق والأرق وعدم الارتياح، "فيهرب الشاعر -ولو في الخيال- إلى قريته بسماتها الإنسانية، وتظل القرية واحة يفيء إليها من الوهج والهجير والقَحل المديني، حتى لو كانت حياة القرية بطيئة الإيقاع" [٤]، وهذا النزوع تستدعيه طبيعة الإنسان في البحث عن حياة أكثر صفاء ودعة تنسجم مع الروح الحالمة بالحرية وحب الطبيعة، النازعة دوما للاجتماع والمؤانسة بعيدا عن الصدود والجفاء والتفرد.

إن هذا الاختلاف بين القرية والمدينة لهو اختلاف مثير لمشاعر الأدباء على مر العصور، إذ إن المهاجرين للمدن - بحثا عن لقمة العيش - تاركين قراهم لَينتابهم الرفض القاطع للعيش في المدن بادئ الأمر باحثين عن العادات والتقاليد التي ألفوها في بيئاتهم المفتوحة على الطبيعة بكل تفاصيلها، وهذه العادات ترتبط لديهم بالمكان والزمان والإنسان، لما يجدونه من اختلاف وبون شاسع في الحياة المدنية، "وتختلف القرية عن المدينة في بعض الجوانب، تختلف حياتها وعاداتها وطبائعها وناسها وبيئتها، والبادية

---

[٢] علم السوسيولوجيا يقوم على دراسة المجتمع وأنماط العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي وثقافة الحياة اليومية، ينظر: سوسيولوجيا المثقفين، جيرار ليكلرك، ترجمة: جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٨، ص٥.

[٣] ينظر: المرجع السابق، ص ٥.

[٤] المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار أبو غالي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ٢٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

تختلف كذلك عن القرية وعن المدينة في جوانب من ذلك"[٥].

لقد حفل التاريخ العربي الأدبي بنماذج شعرية مخلّدة، جاءت فيها معاني اللوعة والحزن والألم عند مفارقة ديار الريف والبادية، والاضطرار للسكن في قصور المدينة، برغم حياة الدَّعة والغِنى والراحة التي وجدت في المدينة.

ومن هذه الشواهد المشهورة قصة ميسون زوجة معاوية التي يرويها ابن عساكر في تاريخ دمشق، حيث يقول[٦]: " تزوج معاوية بن أبي سفيان ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد فبقيت عنده مديدة فسَئِمته، فأنشأت تقول وحنت إلى وطنها:

لبيتٌ تخرق الأرواحُ فيه ... أحبُّ إليّ من قصرٍ منيفِ

وأصواتُ الرّياح بكلِ فجٍ ... أحبُّ إليّ من نقرِ الدفوفِ

خشونةُ عِيشتي في البدوِ أشهى ... إلى نفسي من العيشِ الطريفِ

فما أبغِي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطنٍ شريفِ

لقد آثرت هذه الريفية -بطبعها- الحياة البدوية بكل ما تحمله من عناء وشظف، فبيوت القش التي تخفق فيها الرياح، والعيشة الخشنة، أحب إليها من هذا النعيم الذي ترفل فيه، وفيه تتنعم صباح مساء، مع نقر الدفوف في عاليات القصور عند الغدو والرواح، بل إنها شبَّهت - في أبلغ صورة- بيتها الريفي المتواضع بالوطن الشريف الذي تهنأ بالعيش فيه ولا تبغي عنه بديلا ولا عنه بدا.

وتُعدّ هذه القصيدة نموذجا صريحا للمفاضلة بين الريف والمدينة، وحياة البداوة والحضارة، لما يعلق في ذهن البدوي من علائق لا يمحوها بريق المدينة وعيشها الهنيء

(٥) صورة المجتمع في الرواية السعودية، محمد أبو ملحة، نادي أبها الأدبي، ط ١، ١٤٣٠هـ، ص ٨٤.
(٦) تاريخ دمشق، أبو القاسم بن عساكر، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ، ١٣٤/٧٠.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وقصورها العالية.

إن أثر المدينة والموقف منها وصورتها في الشعر العربي لمحل بحث وتأمل يحفز لدارسته وتأمله، ولذا فقد حظيت صورتها بالدراسات الأدبية والنقدية كظاهرة من ظواهر الشعر العربي الحديث الجديرة بالدراسة[٧].

أما إبراهيم مفتاح فإنه لم يذهب بعيدا عن هذا المذهب في التأثر بهذه الثنائية المهيجة للمشاعر، فالحنين إلى مسقط رأسه قرية فرسان، يلازمه في أسفاره وترحاله، يجتاحه الحنين إليها من حين إلى آخر؛ فيهرب إليها -حتى في الخيال- كواحة يفيء إليها من عناء السفر وزحمة المدنية وصخبها.

والمتتبع لتنقلات إبراهيم مفتاح على مستوى حياته العملية على الأقل، نجده بادئ ذي بدء يغادر جزيرته فرسان للدراسة بمعهد المعلمين بجيزان، ثم إلى محافظة بيش للعمل بمدرستها الابتدائية، ثم إلى مدينة جيزان مرة أخرى معلما بالمدرسة الابتدائية السعودية، ليعود إلى مسقط رأسه جزيرة فرسان معلما بمدرستها الابتدائية، ثم إلى مدينة الطائف للدارسة مرة أخرى والحصول على دبلوم الدارسات التكميلية، ثم العودة إلى فرسان، وقد عمل في الرياض سكرتيرا لمجلة الفيصل[٨]، فما لبث أن عاد مبكرا لفرسان؛ حين شده الحنين إليها، حتى أنه لم يكتب بيتَ شعرٍ واحدٍ في الغربة، وتعطّل عن العمل، وانتابته علل العشاق في بعد محبوبيهم.

لقد أثرت هذه التنقلات في شخصية شاعرنا وألهبت مشاعر الحنين ولواعج الشوق إلى مسقط رأسه جزيرته الحالمة جزيرة فرسان، "ففي تلك السنة التي درس بها في

---

(٧) ومن هذه الدراسات:
١- دراسة بعنوان: (الشاعر والمدينة) لعز الدين إسماعيل في كتابه: (الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية).
٢- دراسة بعنوان: (الموقف من المدينة)، لإحسان عباس في كتابه: (اتجاهات الشعر العربي المعاصر).
٣- كتاب: (صورة المدينة في الشعر العربي الحديث)، لزهير عبيدات.
٤- كتاب المدينة في الشعر العربي المعاصر، لمختار أبو غالي.

(٨) الشعر في منطقة جازان من ١٣٥١-١٤١٨هـ، حسن النعمي، ص ١٣٠١-١٣٠٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الطائف كتب عددا من قصائد الحنين الجميلة، ومنها قصيدة تحية إلى فرسان[٩]، والتي جاء فيها:

إيه يا مهبط رأسي هيجت ذكراك نفسي
كم تلاقت فيك أشـ ـجاني وأفراحي وبؤسي
وتلوعت حنيناً سامي اللوعة قدسي
كم تذكرت الصبا يوما وحنيت لأمسي

ثم يناجي جزيرته من الطائف قائلا:

يا ابنة البحر سلام كله حب وذكرى
وتحيات التياع من ربى الطائف تترى
أنا باللوعة مضنى أطلق الآهات جمرا
لم أعد أهوى الليالي أو أرى في الليل سرا
لم أعد للنجم أرنو لا ولا أشهد بدرا

ويقول متغزلا في مدينته الفاتنة، في قصيدته (جازان)[١٠]:

يا إله الوجود إن خيالي كلما طاف في السنا البراق
أذهلته حقائق وطيوف "سوف تغنى[١١] الدهور وهي بواق"
أينما سرت تحتويني المراعي واخضرار الحياة في الأوراق
فاعذري الشعر والهوى والقوافي واعذريني إذا بدا إخفاقي
ودعيني أقول إن عروسي فتنة للعيون والأحداق

---

[٩] المرجع السابق، ص ١٣٠٢.
[١٠] عتاب إلى البحر، ص ٣٩.
[١١] هكذا جاءت "تغنى"، والأصل: "تفنى"، وهذا شطر بيت من قصيدة الأبيوردي:
كلماتي قلائد الأعناق سوف تفنى الدهور وهي بواقي
ينظر: ديوان الأبيوردي، المطبعة العثمانية، لبنان، ١٣١٧هـ، ص ٢٢٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لقد وردت المدينة والقرية في شعر إبراهيم مفتاح كمكان اجتماعي في عدة مواضع، ويمكننا تتبع ذلك من خلال البعد الجمالي الذي يوظفه المكان في النص موضع الدراسة.

وأول هذه الأماكن المؤثرة تأثيرا دائما في شعر مفتاح هي جزيرة فرسان، المكان والمنزل الأول الذي يحن إليه في كل أحواله وأيامه، هي مسقط رأس الشاعر ووطنه الصغير، " فقد شغلته بموقعها وسحرها وخصوصيتها، فكتب عنها شعرا كثيرا"[١٢]، حتى لقب بـ "شاعر فرسان"[١٣].

"فرسان بالنسبة لإبراهيم مفتاح هي قضيته الكبرى ومشروعه الأهم، تأريخاً وأدباً وفناً وثقافةً وتنمية وشعراً وجمالاً وأساطير وحكايات وذكريات، أفنى عمره في توثيقها والاحتفاء بها والحفاظ عليها من خلال الكم الهائل الذي كتبه عنها، لقد أجهد بدنه وأنفق ما بين يديه وصرف وقته من أجل تشييد متحف اقتطعه في جزء من منزله وضيق به على أهله من أجل الحفاظ على تأريخ فرسان وذاكرتها، فعل ذلك بكل أريحية وقناعة ونفس راضية، وأصبح ذلك المكان مزاراً لكل قادم إلى فرسان، محفوفاً برحابة الاستقبال وغزير المعلومات ودهشة الذاكرة لديه"[١٤].

إبراهيم مفتاح يجسد هذه الفرسان في أبهى الحلل دوما وأبدا، يجعلها مُفْتَتَحا لقصائده ودواوين شعره ومؤلفاته، وبوابة يدخل منها إلى كل عوالم الحب والجمال والشغف والفتنة، فهو "يتحدث عن معشوقته جزيرة فرسان أكثر مما يتحدث عن نفسه"[١٥].

لقد أحبها حتى أشبهها في ملامحها، في كتاباته عن زرقة بحرها وفتنة لياليها المقمرة وعن عتاقة آثارها، ولفتات غزلانها وحتى في تجاعيد تضاريسها وشطآنها البكر.

---

[١٢] شعر إبراهيم مفتاح دراسة أسلوبية، صالح العثيم، دراسة منشورة، جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، ١٤٣٩هـ، ص ٦٤.

[١٣] قراءة في تجربة إبراهيم مفتاح الإبداعية، ص ١٩٥.

[١٤] جريدة عكاظ، مقالة بعنوان: تلميح وتصريح (شارع إبراهيم مفتاح)، حمود أبو طالب، بتاريخ ٢٠٢١/٠٧/٢٠م.

[١٥] ينظر: جريدة الجزيرة، العدد ١٧٠٤٠، أعلام في الظل، محمد القشعمي، ص١٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

إذا أردت أن تتعرف على فرسان فيكفيك التعرف على إبراهيم مفتاح ومجالسته، فأنت تجالس كل تفاصيل هذه الجزيرة الحالمة بالحب المكتنزة لكل معالم الجمال والفتنة.

ولا نجد وصفا دقيقا لتأثير جزيرة فرسان في مشاعر وحياة أديبنا محل الدراسة، إلا كما شخّص ذلك صديقه علوي طه الصافي حين قال: "وصديقنا العزيز الشاعر الرقيق (إبراهيم عبد الله مفتاح) وقع في حب (غجرية) حسناء، ذهبت بلبه، وسيطرت على مشاعره الإنسانية الشاعرة، وخلبت قلبه، وتمكَّنت من ذاكرته، وتغلغل عشقه لها مخترقاً مسام جسمه، معربداً في دمه، ممتزجاً بكرياته الحمراء والبيضاء، فأصبح مثل (مجنون ليلى) هائماً في أزقتها، كعصفور مغرِّد على شواطئها الجميلة، ورملها الأبيض الناعم، هذه الشواطئ التي لا تقل في روعتها، وجمالها عن شواطئ (الريفيرا) الفرنسية، و (هاواي) الأمريكية!!.."[١٦]

وفي هذا الجانب الجمالي تظهر فرسان في بعدها الاجتماعي عند شاعرنا، حيث يظهر هذا البعد الجمالي جليا من وجودها في عناوين قصائده متربعة على عتبة القصيدة باسمها الصريح، كما في: "العروس والصيف في فرسان"[١٧]، "فرسان تخاطب البحر"[١٨]، " تحية إلى فرسان"[١٩]، أو بالإشارة إليها بوصفها أو بالكناية عن اسمها أو بذكر نخيلها وبعض قُراها، كما في: "جزيرتي ولحظة الوداع"[٢٠]، "من ذكريات الصيف والنخيل"[٢١]، "من وحي الغوص والسفر"[٢٢]، "مناجاة على الشاطئ"[٢٣]...

في قصيدة "العروس والصيف في فرسان" قدم الشاعر مفتاح بمقدمة -قبل الدخول للقصيدة- تؤيد ما ذهبنا إليه من البعد الاجتماعي الممتد لفرسان في شعره، إذ يقول: " في

---

[١٦] هؤلاء .. مروا على جسر حياتي، علوي طه الصافي، دار الصافي للثقافة والنشر، ٢٠٠٥م.
[١٧] احمرار الصمت، ص ٦٧.
[١٨] عتاب إلى البحر، ص ٣٢.
[١٩] المرجع السابق، ص ٣٦.
[٢٠] احمرار الصمت، ص ٢٦.
[٢١] المرجع السابق، ٧٣.
[٢٢] رائحة التراب، ص ٥٤.
[٢٣] عتاب إلى البحر، ص ٥٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

جزيرة فرسان ينتقل الناس أيام الصيف إلى بعض قرى هذه الجزيرة حيث المياه الجوفية العذبة التي تجود بثمارها في هذا الموسم، من كل عام، وتسمى هذه الأيام أيام "الشَّدة"..."[٢٤] ويمضي واصفا طقوس العرس الفرساني حيث يقول "والعروس في أول سنة من عمر زواجها، يُحتفى بها يوم "شدتها" حيث تنقش أقدامها وكفوفها بالحناء والخضاب، وتوضع على شعرها أنواع الطيب الممزوج محليا بأصناف من العطور والأطياب الأخرى يسمونها "العُكرة"..." [٢٥].

إضافة لذلك يطرز مفتاح قصيدته هذه بأبعاد جمالية في هذا التصور الاجتماعي العام للقصيدة، فحين يبدأ متلهفا ومتشوقا بقوله:

يشوقني كف المحنى إذا «نشر» ويطربني الخلخال يوما إذا خطر

وأشتاق بعد العصر مغنى كواعب على صوتهن الشعر يشدو وينهمر

وحين يمضي مفصلا للعادات الاجتماعية العتيقة للجزيرة فرسان، ومراسيم الزواج فيها، ما يلبث أن يرجع للمكان الذي يتجذر منه، ولا يطيب المقر إلا في جنباته، فهو يوصي حبيبه أن يبلغ سلامه وتحياته لأرض النخل، مع خالص أمنياته له بأن يطيب له بها المقر، إذ يقول:

فإني حبيب القلب روح يطير بي إليك اشتهاء الشعر للموكب العطر

إذا جئت أرض النخل بلغ تحيتي وأغلى الأماني أن يطيب لك المقر

وتتكرر هذه الأبعاد الوجدانية في قصيدته التالية لهذه القصيدة في ذات الديوان، قصيدة "من ذكريات الصيف والنخيل"[٢٦]، والتي كان مطلعها موحياً بالمسرح الذي حدثت على خشبته أحداث الصيف والنخيل، يقول ابتداء:

---

[٢٤] احمرار الصمت، ص ٦٧ .

[٢٥] المرجع السابق، ص ٦٧.

[٢٦] احمرار الصمت، ص ٧٣

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

في حمى أيكة وتحت النخيل كنت ألهو وكان يحلو مقيلي

كان لي في الصباح شدو العصافير وعند الضحى رخيم الهديل

ونصيبي من الحياة رفاق لست أرضى سواهم بالبديل

أيُّ ذكريات دبَّجها الشاعر في ثنايا هذه القصيدة العذبة التي تحكي ذكريات تطرق جرس ذاكرة الشاعر، فيفيض واصفا لتلك الأيام الخوالي التي عاش فيها أجمل المواقف التي جسدها أمامنا في هذا النص.

ولكن ما يعنينا في هذا النص في بعده الاجتماعي، هو المكان الذي يتكئ عليه النص والشاعر، ويضم الذكرى والزمان ورفاقه الذين لا يرضى لهم بديلا، وجِدّته التي تنوء خطاها بحمل الزنبيل[٢٧]، ووجبة الإفطار الجماعي بنكهة السليط[٢٨]، يقول:

ردّدتها النخيل في وشوشات ناعمات وسحر ظل ظليل

احضروا الدلو فالضحى في اشتياق للقانا وللحديث الجميل

جدتي هذه تطل علينا وخطاها تنوء بالزنبيل

ساعدوها كفاكم ما احتملنا من عناء "الصفرا"[٢٩] وجنى النخيل

وتعالوا إلى الفطور جميعا عيش "شرخ"[٣٠] وذا سليط "الهبيلي"[٣١]

ولكن كل هذه الذكريات لا تكتمل لهؤلاء الرفاق وجدّتهم إلا حول "بئر عثمان"[٣٢]، فالبئر رمز للأرض وللزمان، البئر مكان له صفة الثبات، "والبئر رمز للحياة والموت

---

[٢٧] الزنبيل: الجراب أو الوعاء المصنوع من سعف النخيل، ويستخدم لنقل الحبوب والذرة والثمار وغيرها.

[٢٨] زيت السمسم.

[٢٩] عامية معناه على الريق. المصدر: احمرار الصمت، ص ٧٤

[٣٠] اسم لامرأة مشهورة بجودة طحين الذرة. المصدر: احمرار الصمت، ص ٧٤

[٣١] اسم صاحب دكان يبيع الزيت. المصدر: احمرار الصمت، ص ٧٤

[٣٢] بئر في قرية "القصار" مشهورة بعذوبة مائها وصفائه. المصدر: احمرار الصمت، ص ٧٤

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

والحقيقة، لأنه يحتوي على الماء، لكنه ماء ليس سريع الجريان، البئر رمزٌ مزدوجٌ، رمز للحياة وللموت، للعطش والارتواء، للموارد الطبيعية والاجتماعية أيضًا، للتواصل بين الناس ووجودهم معًا للسقاية والشرب من البئر ورمز لتشتتهم وتفرقهم بعيدًا عن البئر، والبئر عميق الغور أيضًا وهو يرتبط عند باشلار برمزية الصناديق والكنوز والسراديب وكل ما هو خفي أو غامض"[٣٣]، هذا البئر "بئر عثمان" يذكر به مفتاح رفاقه الذين كان لهم نصيب من هذا البئر بلا شك، فيقول:

بئر عثمان هل رأيتم صفاها أو شرتم من مائها المعسول

وغسلتم رؤوسكم.. ولِحاكم ورشَشْتم رداءكم بالقليل

مرحبا جدتي فنحن انتهينا خبرينا، تحدثي وأطيلي

وبعد هذا اللقاء الاجتماعي المفعم بروح الأخوة والتضحية والتعاون في تناول الدلاء، والنداءات التي تتعالى في ذلك الصباح الندي، والحركة الدؤوبة، ينتهي هذا المشهد بسكون تام، حين تطلب الجدّة من أبنائها الخلود للنوم لتكمل لهم فصول القصة، فهذا وقت المقيل الذي يحلو فيه النوم:

حدثينا فالجو يبدو لطيفا ولقد جاءنا نعاس المقيل

قالت النوم راحة فاستريحوا وغدا نلتقي وأروي فصولي

وبهذا الختام يسدل مفتاح الستار على أحداث هذه المسرحية بحدث ساكن هو "النوم"، بتوصية من الجدة التي تؤجل الحديث ليوم آخر، والنوم هنا يوحي بالطمأنينة والراحة والسكينة والهدوء في ظلال النخيل.

---

[٣٣] رمزية البئر والسرداب قراءة في ديوان "يمشي كأنّه يتذكر" للشاعر البهاء حسين، شاكرعبدالحميد، دراسة منشورة، موقع الكتابة الثقافي.
https://alketaba.com/uncategorized

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

كانت هذه بعض مظاهر تأثير ثنائية القرية والمدينة في بعدها الاجتماعي لشاعر وأديب تنازعته هذه الثنائية مشكلة بقطبيها (المدني والريفي) لوحة جمالية كانت ألوانها زاهية في جانب القرية (فرسان) وباهتة في جانب المدينة التي لم تسترعي انتباهه وتؤثر فيه، برغم كل الأضواء التي خفتت مع ضوء القمر المتلألئ على شواطئ جزيرة الشاعر التي عاش فيها وعشقها فكانت شاهدا على كل تفاصيله.

ثانيًا- **المكان مؤثرا في البعد الوجداني**

الشعر هو لغة العاطفة التي تنقل للمتلقي ما يدور بخلد الشاعر من مشاعر وأحاسيس، يغلب على هذه المشاعر أن تكون وجدانية بطبيعة الإنسان، أو تتأتى بسبب تفاعل الشاعر مع المؤثرات العاطفية خلال رحلة الحياة حين يقع تحت سيطرة مؤثر ما؛ مندمجا فيه بوجدانه وفكره مستغرقاً متأملاً حتى يتفجر ينبوع الإبداع لديه فيصوغ إبداعه في الإطار الشعري الملائم لهذه التجربة، فالشعر "شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعورا يتجاوب هو معه، فيندفع إلى الكشف فنيا عن خبايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور"[٣٤].

هذه التجارب الحياتية قد تأتي بسبب قصص الحب والغرام والمعاناة العاطفية، كالفراق والبين والبعد والالتياع والتحسر، أو تأتي بسبب الوقوف على الأطلال وما تهيجه لدى الشاعر من مشاعر صادقة حزينة يتذكر معها ذكرى من رحلوا من هذه الديار تاركين خلفهم دورا خواء تبعث في نفسه الأسى والحزن، ليتولد من ذلك تعبير شعري وجداني عميق.

لقد تميّز الشعر العربي في تاريخه الطويل بأنه شعر غنائي، يعتمد على تجسيم المواقف العاطفية المفردة[٣٥]، وبسبب هذا الأصل فإن الشعر العربي يدور في أغلبه حول

---

[٣٤] النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر، ١٩٩٧م، ص ٣٥٧.

[٣٥] ينظر: الأدب وفنونه، عز الدي إسماعيل، دار الفكر العربي، الطبعة ٧، مصر، ١٩٧٧م، ص ١٥٤ ـ ١٥٥

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

معانٍ نفسية وأخلاقية ومواقف حضارية؛ تتخذ من الاندماج في الطبيعة أو الإغراق في التجربة العاطفية للحب مظهرا للتعبير عن تلك المعاني[٣٦]؛ ذلك أن الطبيعة والحب هما العنصران اللذان "يمتزجان بوجدان الشاعر امتزاجا يكاد يتحد فيه الوجود الخارجي بالوجود الداخلي، فتحمل التجربة دلالات أرحب من الدلالات المألوفة في التجربة العاطفية التقليدية، ويصبح للشعر مستويان، أحدهما مرتبط بحدود التجربة في الواقع الخارجي، والآخر ناطق بأشواق الإنسان العامة وإحساسه بالكون والحياة والمجتمع"[٣٧].

ومن هنا يصبح الشعر العربي شعرا وجدانيا بالدرجة الأولى، حيث "تبرز فيه ذاتية الشاعر، سواء عبَّر عن إحساسه ومشاعره الخاصة، أو صوّر أحاسيس ومشاعر الآخرين ولوّنها بخواطره وأفكاره"[٣٨].

والشاعر في ذلك يميل لاستخدام تصورات وأخيلة خاصة به لتجسيد ما يرقبه في محيط حياته من تفاعلات البشر مع بعضهم البعض، أو من خلال نظرته للحياة والطبيعة والكون، وتنعكس هذه المراقبة من خلال ميله إلى استخدام "الصور الخيالية والتجسيم والألفاظ الشعرية المحمّلة بدلالات شعورية غير مقيدة بمعانٍ مادية محدودة"[٣٩].

ويأتي هذا التوظيف للمفردات -الناتج من تصور الشاعر الخاص به - محملا بكلمات وإيحاءات ومعان لا تنطبق على أصولها اللغوية فحسب، ولكنها تنزاح لصور وأخيلة يعنيها الشاعر، ربما تكون شاردة عن المتلقي، يقرؤها قراءة خاصة به، تختلف هذه القراءة على مر العصور والأزمنة، باختلاف القارئ والنص.

ويستوي في ذلك أن تكون المفردة اللغوية المستخدمة دالة على مكان أو زمان أو إنسان، أو غير ذلك من المفردات، لأن العبرة في استخدامها بما يوظفها الشاعر له، لا

---

[٣٦] ينظر: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، عبد القادر القط، مكتبة الشباب، مصر ١٩٨٨، ص ١٤ ـ ١٥، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

[٣٧] المرجع السابق، ص ١٤.

[٣٨] المرجع السابق، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

[٣٩] المرجع السابق، ص ١٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

بأصلها المعجمي[٤٠].

على أن مفردات المكان في الشبكة اللغوية التي يستخدمها الشاعر تتميّز بكونها واحدة من أكثر العناصر استخداما في الشعر العربي خاصة؛ انطلاقا من تقاليد الشعر العربي القديم الذي كان لحضور المكان فيه مكانة مميّزة عن غيره[٤١].

فالمكان في الشعر مرتبط بدلالات الحضور والغياب، كما يرتبط بدلالات الحنين والفقد، إضافة إلى ارتباطه بالزمان في دائرة الخيال الشعري[٤٢].

"ومفردة المكان مثلها مثل كل المفردات التي يستخدمها الشاعر في تجربته الوجدانية، تتخذ طابع التعبير الوجداني؛ فتكون بديلا عن الشعور الداخلي الذي يعبر عنه الشاعر، ودليلا على موقف الشاعر من مدركاته الحسية من حوله"[٤٣]، وهذا يعني أن وجدانية المكان هي تلك الحالة التي يصبح فيها المكان "مجازا" عن كل ما يريد الشاعر التعبير عنه، تعبيرا وجدانيا؛ محملا بالمشاعر الخاصة بالحب والسرور، أو الشقاء والألم، أو الحنين والفقد.

والطابع الوجداني الذي يستخدمه الشاعر يحول المكان من مجرد كلمة دالة على موضع جغرافي، إلى كلمة إنسانية، تكتسب كل ما يتسم به الإنسان من صفات، وتدل على كل التجارب الحياتية في سيرورة الإنسان وفي رحلته مع الحياة[٤٤]، هذه الإنسانية واحدة من أبرز ما يميّز التجربة الوجدانية في الشعر العربي المعاصر، وتتجلى خاصة فيما يُعرف بتراسل الحواس، حيث يستخدم الشاعر الحواس الإنسانية المختلفة في التعبير عن

---

[٤٠] ينظر: نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، مصر، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

[٤١] ينظر: دلالة المكان في الشعر الجاهلي، بن بغداد أحمد، مجلة المعيار، ٢٠١٧، ص ١٦٩ ـ ١٧٥.

[٤٢] ينظر: القارئ والنص ـ العلامة والدلالة، سيزا قاسم، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ٢٠١٤، ص ٥٢ ـ ٦١.

[٤٣] القارئ والنص، ص ٣٧ ـ ٥٢.

[٤٤] ينظر: أنسنة الفضاء في رواية حين تركنا الجسر لعبد الرحمن منيف، حنان عبابسة، دراسة منشورة، جامعة محمد خيضر ـ بسكرة، الجزائر، ١٤٣٦، ص ٢٠ ـ ٢٣

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

بعضها البعض[٤٥]، ومن ثم تكتسب المدركات البصرية والشعورية الموجودة في هذه الحواس طابعا إنسانيا؛ يجعل من كل الموجودات في الصورة الشعرية إنسانا يحس، يحب ويكره، يفرح ويتألم، يرحل ويستقر، ويستجيب كما لو أن له حواسا يدرك بها.

ومن ثم، يمكن القول: إن مفردات المكان في الشعر ليست مجرد مفردات ضمن المعجم الشعري الذي يستخدمه الشاعر في رسم صوره والتعبير عن أفكاره، وإنما هي مركز أساسي من مراكز التعبير الفني في التجربة الوجدانية، بما يجعل لمفردات المكان في نفسها وجدانية التعبير، ووجدانية الدلالة.

الحضور الوجداني للمكان في التجربة الشعرية عند إبراهيم مفتاح:

يغلب على السكان المجاورين لسواحل البحار ومجاري الأنهار رقة العواطف والتأثر الوجداني النابع من هذه البيئات المهيجة للمشاعر.

يأتي ذلك لأن هذه الطبيعة تحفز على التأمل في مكنونات البحار وما يكتفها من غموض وإبهام ومهابة، وعلى امتداد الأنهار وما يحفها من خضرة تنبت على ضفافها الفتنة والجمال.

ولما كان الماء هو نبع الحياة، فهو أيضا منبع من منابع الوجدان والعاطفة الجياشة، "فبه تصير الطبيعة في أوج بهائها وجمالها وخصبها، تزهو وتخضر، تحتضن سائر المخلوقات بكل طوائفها فتبدو عليها البشاشة والسعادة، فلا غرو إذن، إذا عد الماء ظاهرة في الشعر بصفة عامة، لاشتماله على طاقات إيحائية تنبع من طبيعته وماهيته ذات صلة قريبة من طبيعة الشعر وماهيته؛ لأنه يشكل مدارات معنوية مختلفة، تجعل منه عنصراً مهيمناً في المتن الشعري" [٤٦].

يؤكد ذلك ويؤيده قول الأديب مفتاح: "إن سكان السواحل تغلب عليهم دائما رقة

---

[٤٥] ينظر: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص ٣٧١ ـ ٣٧٣

[٤٦] شعرية الماء وتجلياته في ديوان وجع بامتداد دمي، عبدالله كليل، جريدة الرياض، بتاريخ: ٢٠٢١/٠٤/١٧م.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

المشاعر ولين الطباع"[٤٧]؛ وهذا القول يؤكد بوضوح دور المكان "السواحل" في الجانب الوجداني عند مفتاح، ويظهر ذلك في تجربته الشعرية، ونصوصه الأدبية، الشعرية منها والسردية، وهو ما سيوضحه هذا المبحث ويقف عند مواضعه.

وإبراهيم مفتاح ابن بيئته المستلهم منها لكل شيء، يستلهم منها عواطفه الجياشة، وحبه وعشقه لكل ما هو جميل وفتان؛ فتؤثر في بناء اللغة والخيال لديه، فهو عندما يترجم ذلك الحب وينظمه شعرا أو نثرا، تطغى على معجمه اللغوي مفرداته المحلية، المكتنزة بالحنين الدائم، المتماهية مع المكان؛ وما ذاك إلا لارتباطه الوجداني بالمكان بكل ما يحمله من متلازمات طبيعية ولفظية وعادات وتقاليد، يقول عن نفسه: "أنا إنسان غارق في المحلية، ويكاد الصوت المحلي المكتنز بالحنين والعفوية أكثر ما يرسخ في داخلي "[٤٨].

ويتحكم الوجدان في كثير من أعمال إبراهيم مفتاح الأدبية والشعرية، يقول عنه مؤلف كتاب الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية: "من الشعراء الذين يغلب الوجدان على مشاعرهم الشاعر إبراهيم عبدالله مفتاح ويجمع بين الذاتية والتسامي إلى القيم العليا، وقصيدته "عفوا إنها خواطر" تمثل اتجاهه الذاتي، وترسم لنا لوحة من حكايات الهوى الواقعية، وتلتحم الحكاية مع الأشواق التي أججها الموقف، فهو التقى بها في الطريق، فأسقطت اللثام بحركة تجمع بين الحياء والنزق"[٤٩]:

دون قصد وفى التواء الطريق كان لقيا المشوق نحو المشوق

أسقطت كفه اللثام وحيا باضطراب بين الحيا والنزوق

---

[٤٧] فرسان.. الناس والبحر والتاريخ، ص١٨١

[٤٨] شعراء مبدعون: إبراهيم مفتاح شاعر البر والبحر، حليمة مظفر، مقال منشور بتاريخ ٢٠١٦/٠٢/٠٦م، موقع الطرب والمنوعات،: https://www.altrb1.com/2016/02/blog-post_6.html

[٤٩] الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية، مسعد العطوي، بدون دار نشر، ط٢، ١٤٢٠، ص١٥٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لا تلمنـــي فمـــا الطريـــق بخـــال وافتـــراس العيـــون ملء الطريـــق

ويمكـن حصـر مظـاهر ارتبـاط المكـان عـن إبـراهيم مفتـاح مـن خـلال ظـاهرتين وجدانيتين بارزتين هما:

الظاهرة الأولى: أنسنة المكان، أي تحويل المكان الذي يخاطبه الشاعر إلى إنسان، يُسقط عليه كامل التجربة الشعرية، مستعملا الألفاظ الدالة على عاطفة الشاعر، من شوق وحب وحنين، "الشاعر هنا يحرص على إحياء الأشياء من حوله وتأنيسها ومخاطبتها، وخلق الإحساس الإنساني، فتبكي لأوجاعه، وتحن لحنينه، وتسمع أقدس عواطفه وأنبل اختلاجاته "[٥٠].

وتتجلي هذه الظاهرة عند إبراهيم مفتاح في القصائد التي خصصها لتحية الأماكن التي ارتبط بها وجدانيا في حياته[٥١]، ابتداء بمسقط رأسه جزيرة فرسان أو مدينته جازان وامتدادا لبيش أو أبها...

هذه الظاهرة (المرأة الرمز) حيلة أتقنها الشعراء فظهرت وتجلت عند شعراء معاصرين يعد إبراهيم مفتاح واحدا منهم، فمدينة جدة ظاهرة وجدانية عند حمزة شحاته مثلا، وكذلك حال مدينة دمشق عند نزار قباني، وغيرهم من الأدباء الذين تغنوا وتاهوا تيها في عشق مدنهم، تفنى عيونهم دمعا وأنفسهم شوقا إليها، لقد عشقوها عشقا لم يضر بأهله، بل زادهم عزا وفخرا بانتمائهم لهذه البلدان والمدن، فمضوا يجسدونها على صورة أنثى بذكر مفاتنها تارة، وبالتعبير عن عميق الحب والحنين إليها تارة أخرى، فتظهر المدينة في خطابهم على صورة" امرأة تتجلى لهم فيها معاني الحنين والشوق بسبب تدثرها بالغربة في أحيان كثيرة"[٥٢].

ومن هذه النماذج المعاصرة في الشعر السعودي، قصيدة (أنت الرياض) للشاعر

---

[٥٠] دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، مصر، ط٢، ١٤٠٨هـ، ص ٢٦٦.

[٥١] ويمثل ذلك القصائد التي خصصها الشاعر لمخاطبة الوطن أو جزيرة فرسان أو أبها أو بيش وغيرها من الأماكن التي خصها بقصائد مستقلة في دواوينه.

[٥٢] ينظر: الحنين امرأة ومكان، منى المالكي، جريدة عكاظ، بتاريخ: ٢٠٢١/٠٧/٢٠م

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

غازي القصيبي، مثالا لهذا التصور، يقول القصيبي عن هذه القصيدة "استعرت من اسمها اسم الديوان، تصور كيف تمتزج الحبيبة والمدينة فيصبحان شيئا واحدا، تذكرك المدينة بالحبيبة والحبيبة بالمدينة، والحب في النهاية هو الحب" [٥٣].

ويمضي واصفا الحبيبة وكأنها الرياض[٥٤]:

كأنك أنتِ الرياض

بأبعادها بانسكاب الصحاري

على قدميها

وما تنقش الريح في وجنتيها

وترحيبها بالغريب الجريح

على شاطئيها

وطعم الغبار على شفتيها

"إن المقارنة التي تكتسي طابع التشبيه هنا تبدو غريبة ومهمة شاقة؛ نظرًا لأنها تجمع بين الحبيبة بوصفها كائنا آدميا له إحساس، ومدينة هي في الواقع عبارة عن عمران.. ولكن المتأمل في عمق الأبيات وجوهرها يستشف أن الذي يجمع بين الحبيبة والرياض حب الشاعر لهما وتعلقه بهما"[٥٥].

ولا يقف القصيبي عند هذا الحنين؛ بل "يغوص في شوارع الرياض بمسمياتها ليهيم فيها؛ إنها جزء من وطنه الذي يعشقه ويوثّق أدق تفاصيل أمكنته"[٥٦]، حيث يمضي

---

[٥٣] سيرة شعرية، غازي القصيبي، تهامة للنشر والمكتبات، ط٣، ١٤٢٤هـ، ص ٩٧.

[٥٤] ديوان أنت الرياض، غازي القصيبي، المكتب المصري، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٨.

[٥٥] مع الشاعرين المبدعين الأمير عبد الله الفيصل و د. غازي القصيبي، يوسف إبراهيم السالم، مطبعة سفير، الرياض، ص ١٣٦.

[٥٦] المكان في شعر غازي القصيبي، بدرية السعيد، دارسة منشورة، ص ١١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

قائلا[٥٧]:

وحين تغيب الرياض..

أحدق في ناظريك قليلا

فأسرع في "الوشم" و"الناصرية"

وأطرح عند "خريص الهموم"

وحين تغيبين أنت...

أطالع ليل الرياض الوديع

فيبرق وجهك بين النجوم

وهذا المعنى لم يكن بعيدا عند إبراهيم مفتاح، يقول في قصيدته (وطن على صدور الأوسمة)[٥٨]:

هذي المفاتن في عينيكَ تأتلق وفي رحابكَ هذا السحر والألق

فالوطن هنا هو حبيبته التي جَمعت كل المفاتن والمحاسن في لحاظها، فبدت عروسا جذابة تأتلق سحرا وجمالا، فيمضي شغوفا بهذه المحبوبة مؤكدا لجمالها وجمال عينيها قائلا:

يغازل الفجر في عينيك أغنية ويزدهي في سماك الليل والشفق

وهو ما يؤكد مفهوم أنسنة الأماكن لإظهار بعدها الوجداني لدى الشاعر، والجامع بين الوطن والحبيبة هو حب الشاعر وحنينه وشوقه وشغفه وتعلقه الشديد بهما.

---

[٥٧] ديوان: أنت الرياض، ص ٨.

[٥٨] ديوان رائحة التراب، ص ١٠، وقد وردت هذه القصيدة ضمن مقررات وزارة التعليم، كتاب (لغتي الخالدة)، الصف الثاني المتوسط، الفصل الدراسي الثاني، ص ١٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الظاهرة الثانية: تحويل التجربة العاطفية للشاعر إلى مكان، تتجسّد فيه كل المشاعر الإنسانية التي يشعر بها ويعبر عنها في تلك التجربة، وهذا يتجلّي في كل القصائد الوجدانية التي عرض فيها الشاعر لمشاعره الذاتية، في غير مخاطبة المكان[٥٩].

وبعبارة أخرى، يمكننا ملاحظة أن الشاعر يجعل المكان في تجربته الشعرية محور التصوير الفني لتجربته، سواء أكانت التجربة تتناول مشاعره تجاه مكان محدد، أو كانت تتناول إحساسه تجاه إنسان، أو تتناول مشاعره التي تعبر عن إحساسه بالحب أو إحساسه بالوحدة، أو غير ذلك من المشاعر التي تعرض للإنسان في حياته وبخاصة عند تنقله وسفره وارتباطه العاطفي بالمكان، ومن ثم حنينه إليه عند فراقه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المكان نفسه في تجربة مفتاح من الناحية الوجدانية يتخذ أشكالا مختلفة، منها المكان: المقدس، والمكان الوطن، والمكان البيت أو القرية، ولإبراهيم مفتاح شعر "يمازج فيه بين العواطف الذاتية، والرمز إلى الوطن، وقضايا المجتمع"[٦٠].

كذلك يتجلى الحضور الوجداني للمكان في شعر مفتاح من خلال الارتباط بالرحلة الحياتية للشاعر؛ معبرا عن مرور الزمن، الأمر الذي يضفي على المكان دلالة زمانية إلى جانب دلالته المكانية المباشرة، وقد تطرق هذا البحث لذلك عند الحديث عن الظاهرة الزمكانية في شعر مفتاح[٦١].

هذا يعني أن للمكان في تجربة مفتاح حضورا واسعا، يدخل في كل دقائق التجربة الشعرية، وهذا الحضور يأخذ شكلين بالنسبة للتجربة الوجدانية: إما أن يكون المكان هو موضوع التجربة، أو يكون المكان أداة لتجسيد التجربة.

والجامع بين الشكلين صفات المكان نفسه، حيث يتخذ المكان - غالبا - صفة

---

[٥٩] ويمثل ذلك قصائده من ديوانه (احمرار الصمت): "وماذا بعد الغياب" ص ٢٠، "هناك موعدنا" ص ٣٠، و"وعد لعينيك" ص ٥٣.

[٦٠] الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية، ص ١٥٨.

[٦١] ينظر: ص

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

المحبوبة التي تتحلى بكل مظاهر الجمال الحسي والمعنوي للأنثى، فالمكان هو المعشوقة، والمكان هو الأم، والمكان هو الوطن، والمكان هو الحنين في الغربة، والمكان هو الفضاء المفتوح على الحاضر والماضي معا، وأحيانا المستقبل.

هذه هي الصورة العامة للمكان عند مفتاح، وهي الصورة التي تجسّد الخصائص الوجدانية للمكان في شعره.

المكان ـ موضوع الوجدان

إنه لمن اللافت للنظر في شعر مفتاح تخصيصه لعدد من قصائده لمخاطبة المكان باعتباره موضوع التجربة، وهو المحرك لمشاعره وأحاسيسه، ومجمع أفراحه وأحزانه، وفيه ذكرى صباه وأيامه التي لا تنسى، فيبدو المكان مقدسا عنده، فيه سمو وعزة وفخر، وإليه ينزع الحنين والشوق الدائم، ومن ذلك قوله من قصيدته "تحية إلى فرسان"[٦٢]:

إيـــه يـــا مهـــبط رأســـي هيجـــت ذكـــراك نفســـي
كـــم تلاقـــت فيـــك أشـــجاني وأفراحـــــي وبؤســـــي
وتلوعـــــت حنينـــــا ســـامي اللوعـــة قدســـي
كـــم تـــذكرت الصـــبا يومـــا وحنيـــــت لأمســـــي
لأرى أربُـــــع أترابـــــي ومغنـــــاي وأنســـــي
كـــم تـــذكرت عيونـــا ســـحرها أودى بحســـي

وهنا يربط الشاعر خطابه بالذكريات والحنين إلى النشأة الأولى التي لا ينساها، فيستخدم لغة رومانسية مكثفة بالكلمات الدالة على الحنين (هيجت، ذكراك، أشجاني، أفراحي، بؤسي، تلوعت، حنينا، اللوعة، أنسي، سحرها، بحسي، ...)

ومما يلفت النظر في هذه الأبيات خطاب المكان باعتباره المحبوبة التي شهدت

[٦٢] عتاب إلى البحر، ص ٣٦

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

مراتع صباه ومرابع طفولته الأولى، فهو يخاطبه خطاب الأنثى مستفهما استفهاما إنكاريا، بأن لا شيء ينسيه هذا المكان[٦٣]:

أنـــا لـــن انســـاكِ يومـــا أي شـــي عنـــكِ ينســـي

كل هذا يجعل من لغة القصيدة لغة شاعرية، سيما أن مجازها مرتبط بالوجدان، ومثل هذه اللغة الدالة على الوجدان الداخلي، هي في حقيقة الأمر من الخصائص الأسلوبية المميّزة للغة الشاعر في شعره، الأمر الذي يشير إلى اتسام كل تجارب الشاعر بهذه اللغة الوجدانية، أيا كان موضوع القصيدة.

على أن ربط الشاعر بين المكان الذي يخاطبه ووجدانه دال في نفسه على الطبيعة الوجدانية للمكان، كما أنه دال على طبيعة الرؤية الفنية التي ينطلق منها الشاعر، فهو ينظر إلى الأشياء من حوله نظرة الرومانسيين الذين يحوّلون المدركات الحسية من حولهم إلى تجارب وجدانية دالة على انفعالهم الداخلي بما يشاهدونه، ويستقصون ذلك الانفعال في أبيات متتالية، قد تستغرق القصيدة كلها[٦٤].

ويؤكد مثل هذه النظرة الوجدانية الرومانسية ارتباط الإحساس الوجداني لدى الشاعر بالحنين والذكريات اللذين يُعدّان مركز الانفعال لدى الشاعر الرومانسي[٦٥]، أما خطاب الأنثى في هذه القصيدة فهو أيضا من العلامات الدالة على وجدانية التجربة، فالمكان هو الحبيبة التي يخاطبها الشاعر[٦٦]:

يـا ابنـة البحـر سـلام مـن فتـى يلقـاك يحلـم

هاجـه الحـب فأمسـى "طـائر الشـوق" متـيم

ويمضي في هذا النداء العذب الذي يربط جزيرته بالبحر ارتباط الأم بابنتها، فيناديها

---

[٦٣] عتاب إلى البحر، ص ٣٦.
[٦٤] ينظر: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩.
[٦٥] المرجع السابق، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.
[٦٦] عتاب إلى البحر، ص ٣٧.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ملقيا عليها تحية السلام، وهو المتيم بحبها، البعيد عنها عند كتباته لهذه القصيدة، إذ كتبها وهو في مدينة الطائف، تحت تأثر نفسي حين هاجت عليه ذكريات أيقظت حبه الكامن في أعماقه وأدخلته في تلك التجربة الوجدانية، فأنشأ مناديا لفرسان، مذكرا إياها بأنه قلب مفعم بالحب ذو النغم الشجي:

أنـــا يـــا فرســـان قلـــب ملـــؤه الحـــب المـــنغم

أنســـج الاشـــواق ثوبـــا ســـاحر اللمـــس مـــنعم

ثم يمضي مناديا ومناجيا، ملقيا السلام المحمل بالحب والذكرى وتحيات اللوعة التي أضنته، ليعبر عنها بآهات حرى:

يـا ابنـة البحـر سـلام كلـــه حـــب وذكـــرى

وتحيـــــات التيـــــاع من ربى الطائف تترى

أنـا باللوعـه مضـنى أطلـق الآهـات جمـرا

لـم أعد أهوى الليالي أو أرى فـي الليـل سـرا

لـم أعـد للـنجم أرنـو لا ولا أشـــهد بـــدرا

إن بُعد الشاعر عن محبوبته (ابنة البحر)؛ قد حرمه حب الليالي، وحب جمال الليل المحمل بالأسرار والنجوى بقرب الحبيب أو المناجاة لطيفه عند بعده، حتى وإن تزين هذا الليل بالنجوم والقمر؛ فهي لا تعني له شيئا!

وبرغم أن الليل استراحة المحبين، ولكنه يبقى رمزا للضعف، ففيه يستجمع العشاق الذكريات ويرسمون في مخيلاتهم صور الألم والبعد، ويجسدون فيه أطياف محبوبيهم للنجوى، فتذرف به دموع الهوى الصادق التي لا يراها أحدا غيرهم، يقول الشاعر العربي[٦٧]:

[٦٧] ديوان أبو فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٤هـ، ص ١٦٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

تكاد تضيء النار بين جوانجي إذا هي أذكتها الصبابة والفكر

لقد أثر البعد على حال شاعرنا(مفتاح)، فأضناه وأنحل جسمه، حين اصطفت في جمجمته الأطياف السابحات، وفي قلبه المعاني الكثيرة، فيكاد يسمع هتاف المحبين في تلك الأرض البعيدة العتيقة، هتافات العودة لمراتع معشبة بالحب والجمال، فيقول:

يا ابنة البحر سلام أنا في حبك مضنى

ناحِلُ الجسمِ سقيمٌ ذائب القلب معنى

بين جنبي هيام وبقلبي ألف معنى

وبعيني طيوف سابحات تتغنى

والهتافات بسمعي أيها المشتاق عدنا

فهنا ذكرى سعاد وهنا أطياف لبنى

وهنا أعشاب حب في روابيه رتعنا

وفي تكرار "يا ابنة البحر" نداء لحبيبته الغائبة البعيدة "فرسان"، وفي ذلك أيضا دلالة لشوقه الكبير، والأنس بذكرها ومناداتها، وفي ذلك دلالة على إخلاص الشاعر لذاكرته المرتبطة بذلك المكان، كما أنه دليل على حنينه المتجدد لذلك المكان.

"إن المنادى - غالبا ما - يأتي معينا في خطاب مفتاح، ولكنه لغير العاقل في الغالب، والواقع أن ميل الشاعر إلى مخاطبة الموجودات سواء أكانت حية أم جامدة يعكس رغبته في الاندماج بالأشياء المحيطة به ليبثها نجواه"[٦٨].

وفي هذا التكرار تأكيد للخطاب الوجداني، ولتمركز النص حول فرسان الجزيرة،

[٦٨] شعر إبراهيم مفتاح دراسة أسلوبية، صالح العثيم، دراسة منشورة، جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، ١٤٣٩هـ، ص ١٠٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وفرسان السكن، وفرسان الهوى، وفرسان سعاد ولبنى، حين تبدو أنسنة المكان واضحة هنا باستدعائه لهذه الأسماء التي مرت في التاريخ الأدبي رموزا للحب الصادق الذي تغنى بها الشعراء.

ثم إنه من الملاحظ أن الشاعر لم يذكر من المعالم الدالة على المكان الحقيقي (فرسان) سوى البحر الذي تنام بين أحضانه جزيرته، والذي هو العلامة الفارقة لهذا المكان عند الشاعر.

لقد انصرف الشاعر ببقية الوصف إلى تأكيد إحساسه الوجداني بالحنين، وهو ما يجعلنا نصنف هذه القصيدة في بعدٍ وجداني، برغم أنها دالة على المكان من عنوانها (تحية إلى فرسان)، ولكن الشاعر كان يعني بهذه التحية بث مشاعر الشوق والحنين للمكان موظفا البحر في عمقه المعنوي وحبه الأبدي الذي له شأن خاص عن شاعر خبير بالبحر وأسراره.

ولأن (جازان) هي جارة البحر، والأم الرؤوم لكل شاعر ينتمي لشطآنها، فهي مأوى كل قلب مدله يخفق بحبها، يقول في وصفها في قصيدته (جازان)[٦٩]:

فتنـــة للعيـــون والاحـــداق ربـــة الحســـن والمعـــاني الـــدقاق

أنت يـا جـارة البحـار ومـأوى كـــل قلـــب مدلـــه خفـــاق

فـي روابيـك للصـبا خطـرات ملؤهـا الشـوق للهـوى والعنـاق

وفيها تذكير بمفاتن جازان، فهي جارة البحر، وثمة شوق كبير لعناق روابيها المرتبطة بالصبا عند الشاعر، وبعد هذا الاستهلال يتفجر وجدان الشاعر، معلنا عن غرامه ولهفته:

[٦٩] عتاب إلى البحر، ص ٣٩ ـ ٤٠.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

يا ابنة الشط في فؤادي غرام شـــاعري ولهفـــة للـــتلاق

إلى أن يقول:

يا عروس الجنوب ذوّبني الوجدُ وهـــام علـــى ربـــاكِ انطلاقـــي

يستهل مفتاح مقاطع قصيدته هذه بالنداء، استهلالا يضفي عليها الحيوية والحركة، وهذا النداء يأتي للأماكن التي استحضرها في قصيدته، أو للمكان نفسه، ولكن مع تغيير في التسمية، فهو يناديها بقوله "يا جارة البحار" و "يا ابنة الشط"، و "يا عروس الجنوب"، و " يا ربوع الجمال"، في قوله:

يا ربوع الجمال هل تعذريني إن هفا الوصف لاعتلال مذاقي

وكل هذه التسميات فيها إضافة لـ (البحار، الشط، الجنوب، الجمال) يعني مدينته الحالمة الواقعة على البحر جنوبا ذات المرابع الجميلة، التي ويطرزها بحلل بيانه، ويدبجها بسحر وصفه، وينادي بلهفة وشوق وحنين.

إن هذا النداء المتكرر وما تأتي بينه من مسافات زمنية داخل النص، ليعطي الشاعر الفرصة لتحليل وعرض الفكرة التي يريدها، ومن ثم الانتقال لفكرة أخرى(٧٠).

فبعد النداء الأول "يا جارة البحار" جاء الوصف لجمال الروابي، لينتقل للنداء الثاني "يا ابنة الشط" معبرا عن غرامه وشوقه ولهفته وحبه العميق - وهو الجانب الوجداني الصريح- وبعد النداء الثالث "يا عروس الجنوب" يؤكد ذوبانه شوقا لهذه العروس الحالمة، ويأتي النداء الرابع "يا ربوع الجمال" معبرا عن اعتذاره إن لم يوف حق مدينته جازان وحق جمالها بالوصف والتعبير عن مكنونات قلبه تجاهها.

ومن هنا تتجلى طبيعة الحديث الوجداني الذي تغلب صبغته على هذه الأبيات.

(٧٠) ينظر: شعر إبراهيم مفتاح دراسة أسلوبية، ص ٩٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

إن مما يلفت النظر فعلا ذلك التأكيد على طبيعة المكان "جازان"، باعتبارها ابنة البحر، والحبيبة المعشوقة، والأم والعروس التي يهفو إليها بقلبه وبروحه.

إن التأمل في المطالع التي تتحمل دلالات مكانية في شعر مفتاح، في القصيدتين السابقتين، قصيدة "تحية إلى فرسان" وقصيدة " جازان"، ليعيدنا للتقاليد الفنية القديمة، مستعيدين بها خطاب المكان في الشعر الجاهلي خاصة، باعتباره مفتتح العلاقة بين الشاعر وإدراكه الوجودي لذاته من خلال علاقته بحقيقة المكان(٧١)، في إطار رحلته الحياتية التي تبدأ بخطاب الطلل، على ما في قول النابغة الذبياني في مفتتح معلقته(٧٢):

يا دار ميّة بالعلياء فالسّندِ أقوت وطال عليها سالف الأبدَ

والشاعر الجاهلي جعل من المكان دليلا على وجود الحبيبة، فحب الديار نابع من حبه لحبيبته، وإن تغنى بالديار والأطلال وهيجت مشاعره، فلداعي سكن الحبيب فيها وضعنه منها.

وكما يقول الدارسون في ذلك، فإن "خصوصية الشاعر الجاهلي ـ في قصيدة الأطلال ـ لا تتجلى في أنه يتوسط بين الطلل والقصيدة، أو يجعل القصيدة تتوسط بينه وبين الطلل، بل في رغبته العميقة في أن يتحوّل هو نفسه إلى طلل، وأن تتحوّل القصيدة إلى "طلل" بكل ما ينطوي عليه الطلل من توتر ضدي أو ثنائية زمكانية"(٧٣).

"ومع اختلاف السياق بين الأطلال القديمة والقصيدة الوجدانية المعاصرة، إلا أن حقيقة رغبة الشاعر في التوحد مع المكان تبقى هي العلامة البارزة في هذه العلاقة المتوترة، بما يفسر تكرار ذكر الأماكن، التي تشير إلى رغبة الشاعر في أن يرسخ

(٧١) ينظر: جماليات المكان في الشعر الجاهلي ـ ديوان امرئ القيس أنموذجا، خامر هاجر، رسالة علمية، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ١٤٣١هـ، ص ١١ ـ ١٢.

(٧٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ص ١٤.

(٧٣) الكلمات والأشياء ـ التحليل البنيوي لقصيدة الأطلال في الشعر الجاهلي ـ حسن عز الدين، دراسة نقدية، دار المناهل، لبنان، ١٤٠٩هـ، ط١، ص ١٠٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

المكان في ذاكرته "ومعنى ذلك أن الشاعر يريد أن يحتضن كل محل ومقام، وأن يتذكر كل علاقة"[٧٤].

وهذه العلاقة الوثيقة بين الشاعر والمكان الذي يخاطبه تبقى علامة دالة على رغبة دائمة في التذكّر، وفي بعث الحنين، كأنما بالذكر تعود الأشياء المفقودة، أو يعود الزمن المتولي، فيلقى الشاعر رفاق صباه، ويلقى حبه المفقود، وراحته المفقودة.

وتكمن قيمة المكان في تحمله للقيم الاجتماعية للجماعة التي تسكنه، كما تحمل قيم القداسة والإحساس بالحرية، وتعكس الخبرات الحسية للفرد، كما تعكس إحساسه بالوجود الفردي والجماعي[٧٥].

ولعل من علامات هذا الارتباط الوجداني بين الشاعر والمكان الذي يخاطبه باعتباره موضوعا لتجربته -لا مجرد أداة لإثارة الحنين- تلك الإشارات المتكررة في استعادة تقليد فني مرتبط بالمكان في القصيدة العربية، حيث تتكرر أسماء المحبوبات، ضمن عناصر تكرارية أخرى، باعتبارها رمزا عاما للمرأة ولقيمتها الكبرى في حياة الشاعر القديم[٧٦].

والشاعر هنا يدرك إدراكا تاما قيمة الأسماء المذكورة للمحبوبات، باعتبارها رمزا عاما للمرأة، دون أن يقصد امرأة بعينها، ولعلنا نذكر في هذا المعرض قول مفتاح في قصيدته (تحية إلى فرسان)[٧٧]:

فهنـــا ذكـــرى ســـعاد وهنـــا أطيـــاف لبنـــى
وهنـــا أعشـــاب حـــب فـــي روابيـــه رتعنـــا

---

[٧٤] قراءة ثانية لشعرنا القديم، مصطفى ناصف، دار الأندلس، لبنان، د.ت، ص ٥٥.
[٧٥] ينظر: القارئ والنص، ص ٣٧ ـ ٥٢.
[٧٦] ينظر: بين القديم والجديد ـ دراسات في الأدب والنقد، إبراهيم عبد الرحمن محمد، مكتبة الشباب، مصر ١٩٨٧م، ص ٦٠ ـ ٦٨.
[٧٧] عتاب إلى البحر، ص ٣٧

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لقد نقل الشاعر هنا الدلالة الثقافية للاسم الأنثوي من العصر الجاهلي إلى عصر الشاعر، جامعا بين سعاد ولبنى، وكلاهما من الأسماء المقترنة بقصائد مشهورة، وبقصص حبّ معروفة في التراث العربي؛ خاصة لدى الشعراء العذريين، فسعاد تستحضر إلى الذاكرة مفتتح بيت كعب ابن زهير في مدح الرسول ﷺ[٧٨]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ متيم إثرها لم يفدِ مكبول

وهو المفتتح الذي أصبح علامة بارزة في تاريخ الشعر العربي، وترك تأثيره الواضح في كثير من الشعراء الذين جاءوا بعد كعب بن زهير، مرددين ذكر سعاد في قصائدهم، باعتبار هذا الرمز عاما للمرأة المحبوبة، يجمع بين الجاهلية والإسلام[٧٩].

وكذلك اسم لبنى فهو من الأسماء التي ارتبطت بأخبار الشعراء العشاق أيضا، مثله مثل ليلى وعزة وبثينة؛ فالشاعر بهذين الاسمين أراد أن يشير إلى صلته القوية بأسلافه من الشعراء العذريين في تقاليدهم الفنية.

ولا يخفى على القارئ لشعر إبراهيم مفتاح سمته الوجدانية الظاهرة ظهور ألفاظه كمعجم مكاني، يوظف فيه المكان توظيفا جماليا خاصا به، وبخاصة استخدام الألفاظ الدالة على الحنين والشوق واللوعة، إلى جانب صورة البحر المرتبط بجمال الطبيعة عنده.

التمثلات الوجدانية للمكان عند إبراهيم مفتاح

تظهر الدلالات والتجليات الوجدانية للمكان في صور متعددة، منها الدلالة على الأفق المفتوح، مع الإيحاء بمهابة المكان، وتكاد هذه الصورة أن تكون محصورة في البحر باعتباره الحاضن للمكان الأصلي، وواهب علاماته الخاصة، وبخاصة عند دراسة أدب مفتاح.

---

[٧٨] شرح قصيدة بانت سعاد، تحقيق عبد الله عبد القادر الطويل، جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، ط ١، المكتبة الإسلامية، مصر ٢٠١١م، ص ١٧.

[٧٩] المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٣٦

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

وتظهر التجليات الوجدانية عند إبراهيم مفتاح، في صور متعددة منها المكان المقدس، وهو ما يختص بأماكن المشاعر المقدسة في مكة والمدينة، ومنها التجليات الدالة على المكان / الوطن، والمكان/ الأم، والمكان / المحبوبة، عندما تتجسد هذه الصور في المكان.

وفي جميع المواضع الوجدانية الي تطرق لها البحث، ظل المكان هو المرتكز لهذه التجربة التي يدور حولها موضوع القصيدة.

لقد اختص مفتاح "البحر" بتجليين أساسيين:

الأول: خطاب البحر خطابا مفردا، في قصائد خاصة به، والثاني: استخدام العناصر الدالة على البحر في وصف المكان الذي يخاطبه الشاعر، ولعل خطاب البحر خطابا مفردا لم يحظ بحضور كبير في تجربة الشاعر، بينما تدخل مفردات البحر وصورته في كل عناصر قصائد البحر الحاضرة، سواء ارتبطت ارتباطا مباشرا بالمكان، أو ارتبطت بتجربة حب رومانسية.

فمن القصائد التي خاطب فيها الشاعر البحر خطابا مباشرا، قصيدته "فرسان تخاطب البحر"، حيث يقول مخاطبا البحر على لسان جزيرته فرسان [٨٠]:

"هذه ليلتي "ويوم حياتي صرتَ يا بحرُ دجلتي وفراتي

الهوى أنت كله والأماني فاملأ الكأس بالزلازل وهات

أرقص اليوم فرحة وأغني وأذيب الشجون في نغماتي

لقد افتتح قصيدته هذه بتناص مع أبيات الشاعر اللبناني "جورج جرداق" في قصيدته: (هذه ليلتي)، ولتماهي حالة الشاعر مفتاح الوجدانية مع نص جرداق؛ فإنه يكاد

[٨٠] عتاب إلى البحر، مرجع سابق، ص ٣٢ ـ ٣٤

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ينقل البيتين الأوليين، ولكن مع بعض التغيير، يقول جورج جرداق[٨١]:

"هذه ليلتي "ويوم حياتي بـين مـاض مـن الزمـان وآت

الهـوى أنـت كلـه والأمـاني فـاملأ الكـأس بـالغرام وهـات

والقصـيدة مـن القصـائد الرومانسـية فـي العصـر الحـديث، وهـي حافلـة بالإيقاعـات المغناة، كما تحفل بالدلالة على الفرح بتجربة الحب نفسه، من خلال معجم وجداني قائم على الغناء والليل والسمر، وبالتالي، فمجرد نقل هذا الجو الاحتفالي إلى قصيدة إبراهيم مفتاح يؤكد امتلاء الشاعر بالطابع الوجداني للفرح بتجربة الحب.

إن البحـر الـذي تخاطبـه فرسـان فـي هـذه القصـيدة هـو اللآلـئ التـي تـزين النحـور والصـدور، وهـو السـاحة الفسـيحة التـي تتسـابق فيهـا الـزوارق والسـفن فـي الصـباحات الضحوكة، هو الرذاذ المنعكس للسماء غيوما تهطل بالخصب على الربوع، هذا هو البحر الذي يعنيه مفتاح حين يقول[٨٢]:

كنت بالامس في النحور عقودا وفتونـــا فـــي لفتـــة الغانيـــات

وانطلاقا تنساب فيك الجواري في الصباح الضحوك والامسيات

ورأينـاك فـي السـماء غيومـا تهـب الخصـب فـي ربـوع الحيـاة

هذه الصـور المتعدد التـي يرسمها مفتـاح نابعـة من الحب والارتبـاط العميق للبحر الذي ترسو عليـه السفن وتنسـاب فيـه زوارق الصيد فـي الصـباحات الفاتنـة، ومـن أعماقـه يُستخرج اللؤلـؤ الـذي يـزين نسـاء جزيرتـه، البحـر هـو السـر وراء تلـك الغيـوم التـي تهـب الأرض الجمال والخضرة والبهاء.

---

[٨١] موسوعة الشعر العربي، جورج جرداق، هذه ليلتي.

https://www.aldiwan.net/poem24010.html

[٨٢] عتاب إلى البحر، ص ٣٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

وهذا الحوار بين البحر وفرسان أو البحر والساحل متكرر في قصائد مفتاح ومن ذلك قوله في قصيدته: "أوراق لم تُقرأ بعد"[٨٣]:

عم صباحا

قالها الساحل للبحر، وانثالت مدينة

تحتمي بالشمس

تنزع شالها الملقى على وجه الغسق

تستعيد «الوشم» و «الكحل»

وأهداب الصباح

وعند إلقاء هذه التحية الصباحية من الساحل للبحر تتهادى مدينة كامرأة تقف على ساحل البحر، وتنزع شالها، ربما لتشعر بالحرية التي يمنحها البحر للمستغرقين في تأمله وقت الغسق، مع اتصال الزمن من الليل إلى تباشير الصباح، وهي الحرية التي تتنسّمها المدينة التي تمثّل كل المدن، باعتبار إغفال نسبتها إلى مكان محدد، والارتباط في ذلك أن البحر هو الفضاء الذي ينعكس جمال المدينة أو جمال المكان على صفحته، والبحر أيضا هو الفضاء الذي يحيط بهذه المدينة (الرمزية) على ما يشير في قصيدته: "للنهايات بداية"[٨٤]:

بدأت شوطا نهايات المطافِ تستهل البدء بالوقت الإضافي

أشعلت منذ غد أيامها تمنح الحلم لمدلول خرافي

كلما هز النوى غربتها نثرت أشرعة فوق المرافي

[٨٣] احمرار الصمت، ٣٧.

[٨٤] المرجع السابق، ص ٤٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وأتــت تتلــو اخضــرار قادمــا يجدل الغيم على رأس الفيـافي

لقد مثل البحر في الأبيات السابقة الفضاء الخلفي الذي يحدّد بداية النهايات، والنهايات هنا هي نهايات اليأس، وحلم المستقبل بالاخضرار، وبرغم أن الشاعر لم يذكر البحر صراحة، إلا أنه جاء بعناصر من لوازمه مثل الأشرعة، والمرافئ.

ويمكن للمتأمل أن يلحظ أن الشاعر يرسم فضاءات مفتوحة مقابل فضاءات أخرى يعنيها الشاعر، فالجفاف ذلك الفضاء الصحراوي القاسي، برياحه ورماله، يقابله فضاء معشب مخضر يهمي بالمطر بإيقاع ناعم، يقول [٨٥]:

فوق زنديها عروش للمنى وبكفيهـــا رواء للجفـــاف

تشعل الرمل صباحا طازجا ومســاء مترفا فـوق الضـفاف

وخطى للشعر تهمي مطرا نـاعم الإيقـاع عشـبي القـوافي

تتهجى فتنـة الليـل ضـحى وتصب الشمس في كل انعطاف

وترينـــا ظلهـــا أروقـــة ينضج الهمس بـه قبل القطاف

إن للمكان المتنوع الظاهر في الأبيات السابقة أثرا في وجدانية النص، تلك الوجدانية المفعمة بالأمل الجميل واخضرار الحياة، فالمرافئ التي انتثرت عليها الأشرعة، جاءت لتتلو علامات الحياة غيما على رؤوس الفيافي، في مساء مترف على الضفاف، ليهطل المطر بإيقاعه الطروب الناعم، ذلك الإيقاع الذي يهب الفأل للحياة والجمال للكون والفتنة للفيافي والبطاح.

الخلاصة

بيّنت النماذج السابقة دور المكان ودلالته الوجدانية، وأثره الجمالي عند إبراهيم مفتاح عند توظيفه في البعد الوجداني، هذا البعد الذي تتحكم فيه الحالة النفسية والمؤثرات التي تحيط بالشاعر، لقد اتسع حضور المكان حين يكون هو موضوع التجربة، مع

[٨٥] احمرار الصمت، ٤٥

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

التدرّج في الحضور بحسب نوع المكان نفسه، سواء أكان المكان هو الوطن، أو كان الأفق المفتوح للمستقبل.

لقد كان المكان في هذا الحضور هو السيد صاحب المهابة "البحر"، وهو العروس التي يسعى إليها الشاعر "المدينة"، كما كان هو فضاء الحكاية ومسرح الأحلام.

أما حين كان المكان هو الأداة التي تعبر عن التجربة الوجدانية للشاعر، فقد أصبح هو الأفق الذي يرسم الإطار العام للتجربة، وتتلوّن بحدودها، فيصبح طرقات ودروبا حين يكون الموضوع هو رحلة الشاعر، ويكون هو الحقول والشجر حين يكون الموضوع هو الحب، ويكون مجرد جسد رمزيّ حين تكون القصيدة هي الموضوع.

وبطبيعة الحال اتخذ المكان (الأداة) صورة رمزية، أقرب إلى التجريد، يستشفها القارئ من العلامات المصاحبة "الغيوم، الأبواب، السطور، إلخ"، بينما اتخذ صورة موحية، تحتشد فيها الألفاظ الدالة على الاتساع والفرح وضيق الحزن لدى الشاعر.

"لقد لجأ الشاعر إلى إقامة تواصل مع عناصر لا يمكن أن يكون معها تواصل في عالم الواقع، ولكن الموقف النفسي أو الشعور الضاغط هو الذي يفرض على الشاعر أن يستخدم هذا الأسلوب دون غيره"[٨٦].

لقد رأينا كيف سعى الشاعر مفتاح باستحضار المكان وتوظيفه بحرفية واعية حين يخاطب الأشياء(الأمكنة) من حوله، وحين يرى أن الجزيرة أنثى والقصدية أنثى، تظهر مفاتنها بمفاتن المكان الذي يعنيه، إنه "يحرص على إحياء الأشياء حوله وتأنيسها ومخاطبتها، وخلق الإحساس الإنساني فيها، فتبكي لأوجاعه، وتحن لحنينه وتسمع أقدس عواطفه وأنبل اختلاجاته"[٨٧].

ذلك هو البعد الوجداني للمكان في شعر إبراهيم مفتاح، الذي تغلب عليه الوجدانية

---

[٨٦] جماليات الأسلوب والتلقي - دراسات تطبيقية، موسى ربابعة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، الأردن، ١٤٢١، ص ٧٠.

[٨٧] دلالات التراكيب دراسة بلاغية، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة،٢ مصر، ١٩٨٧م، ط٢، ص ٢٦٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

في شعره حتى أنه قد أفرد تصنيفا لقصائده في ديوانه باسم "الوجدانيات".

ومن هذا المبحث يظهر لنا أن إبراهيم مفتاح شاعر عاطفي وجداني رومانسي غلبت هذه الصبغة على شعره، فما إن يشدو معالجا قضية من قضايا مجتمعه أو يغرد بحب وطنه أو يصف جزيرته التي هام بها عشقا، إلا ويعود للمكان (الأرض) الذي يهيج وجدانه وحبه.

إن المكان محرك وجداني حي يشد الشاعر مفتاح إليه، لينشر أحاسيسه على ربوعه وفي أطلاله، فهو لا ينجو من سطوة هذه الأمكنة عليه، كأمكنة الحقول والبحيرة والغدير وهذا يظهر في كثير من قصائده، ومن هذا النماذج التي نختم بها هذا المبحث قوله في قصيدة موكب الأفراح[٨٨]:

وعنـد البحيـرة أو فـي الغـدير تعـــالي نبـــث رؤى حبنـــا

ونقضي السويعات تحت الأصيل لتمـــزج ألوانـــه شـــوقنا

تعـــالي نغـــرد بـــين الحقـــول ونبنـــي عشـــا لأحلامنـــا

إنّ البعد الوجداني في شعر إبراهيم مفتاح يمثل أحد المفاتيح الجوهرية لفهم تجربته الفنية، إذ تتجلّى فيه قدرته على تحويل الجماد إلى كائن نابض بالحياة، وعلى صهر التجربة الذاتية في فضاء مكاني مشعّ بالدفء الإنساني. وبذلك يصبح المكان في شعره ليس مجرد مسرح للعاطفة، بل شريكًا أصيلاً في تشكيلها وبثّها، دالًا على وحدة الوجود بين الشاعر والأرض والذاكرة والإنسان.

[٨٨] عتاب إلى البحر، ص ٨٨.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

قائمة المصادر والمراجع:

- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، عبد القادر القط، مكتبة الشباب، مصر ١٩٨٨.

- الأدب وفنونه، عز الدي إسماعيل، دار الفكر العربي، الطبعة ٧، مصر، ١٩٧٧م.

- أنسنة الفضاء في رواية حين تركنا الجسر لعبد الرحمن منيف، حنان عبابسة، دراسة منشورة، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر، ١٤٣٦هـ.

- بين القديم والجديد - دراسات في الأدب والنقد، إبراهيم عبد الرحمن محمد، مكتبة الشباب، مصر ١٩٨٧م.

- تاريخ دمشق، أبو القاسم بن عساكر، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ.

- جماليات الأسلوب والتلقي - دراسات تطبيقية، موسى ربابعة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، الأردن، ١٤٢١هـ.

- جماليات المكان في الشعر الجاهلي - ديوان امرئ القيس أنموذجا، خامر هاجر، رسالة علمية، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ١٤٣١هـ.

- دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، مصر، ط٢، ١٤٠٨هـ.

- دلالة المكان في الشعر الجاهلي، بن بغداد أحمد، مجلة المعيار، ٢٠١٧م.

- ديوان أبو فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٤هـ.

- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢.

- ديوان أنت الرياض، غازي القصيبي، المكتب المصري، القاهرة، ١٩٧٧.

- رمزية البئر والسرداب قراءة في ديوان "يمشي كأنَّه يتذكر" للشاعر البهاء حسين، شاكر عبدالحميد، دراسة منشورة، موقع الكتابة الثقافي.

https://alketaba.com/uncategorized -

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

- سيرة شعرية، غازي القصيبي، تهامة للنشر والمكتبات، ط٣، ١٤٢٤هـ.

- شرح قصيدة بانت سعاد، تحقيق عبد الله عبد القادر الطويل، جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، ط ١، المكتبة الإسلامية، مصر ٢٠١١م.

- شعر إبراهيم مفتاح دراسة أسلوبية، صالح العثيم، دراسة منشورة، جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، ١٤٣٩هـ.

- الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية، مسعد العطوي، بدون دار نشر، ط٢، ١٤٢٠هـ.

- صورة المجتمع في الرواية السعودية، محمد أبو ملحة، نادي أبها الأدبي، ط ١، ١٤٣٠هـ.

- القارئ والنص ـ العلامة والدلالة، سيزا قاسم، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ٢٠١٤م.

- قراءة ثانية لشعرنا القديم، مصطفى ناصف، دار الأندلس، لبنان، د.ت.

- الكلمات والأشياء ـ التحليل البنيوي لقصيدة الأطلال في الشعر الجاهلي ـ حسن عز الدين، دراسة نقدية، دار المناهل، لبنان، ١٤٠٩هـ.

- المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار أبو غالي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨.

- مع الشاعرين المبدعين الأمير عبد الله الفيصل و د. غازي القصيبي، يوسف إبراهيم السالم، مطبعة سفير، الرياض.

- المكان في شعر غازي القصيبي، بدرية السعيد، دارسة منشورة.

- نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، مصر.

- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر، ١٩٩٧م.

- هؤلاء .. مروا على جسر حياتي، علوي طه الصافي، دار الصافي للثقافة والنشر، ٢٠٠٥م.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898